الفصل

١١

يوجينيا الإصلاح

ثمة ما حرك مشاعر الوراثي الأمريكي هيرمان ج. موللر ـ حامل جائزة نوبل فيما بعد ـ ليكتب عام ١٩٣٥ قائلا إن اليوجينيا قد «انحرفت بلا رجعة لتصبح واجهة لعلم كاذب لأشياع التحيز العرقي والطبقي، للمدافعين عن المصالح المقنعة للكنيسة والدولة، للفاشيين والهتلريين، وللرجعيين على وجه العموم». على منتصف الثلاثينات كانت يوجينيا الخط الأم وقد اعتُبرت خبيصا من علم منقوص. لخص جيكوب لاندمان عيوب العقيدة في قولة «ليس من الصحيح أن من لهم عائلات كبيرة من غاسلي الغلايات ومنظفي القاطرات وعمال المناجم، والبوابين والزبالين، أن هؤلاء جميعا معتوهون ومغفلون. ليس من الصحيح أن خريجي الجامعات، ومن وردت أسماؤهم في قوائم الشخصيات البارزة، وبعض «الناجحين» من المبتزين والمهربين، أن هؤلاء بالضرورة أفضل الآباء جسديا وعقليا وأخلاقيا... ليس من الصحيح أن المشهورين ينجبون بالضرورة مشهورين... وأن المعتوهين ينجبون بالضرورة معتوهين... وليس من الصحيح أنه لما كان لون خنازير غينيا يتبع في وراثته نظرية مندل فإن الصفات الذهنية في البشر هي الأخرى تتبعها... ليس من الصحيح ـ تحت أي اختبار علمي معروف ـ أن هناك جنسا شماليا، وأن هذا المسمى بالجنس الشمالي هو الأسمى بين الأجناس». ولقد يضيف آخرون أنه ليس من الصحيح أن العاطلين أقل صلاحية من العاملين. وليس من الصحيح ـ كما عرف معظم الوراثيين فيما بعد ـ أن التعقيم اليوجيني سيخلص المجتمع بسرعة من غير المرغوبين يوجينيًا.

ربما خفض التعقيم كثيرا من نسبة ظهور الصفات الوراثية السائدة، مثل رَقَص هنتنجتون، لكن أثره بالنسبة للكثير من الأمراض الوراثية المتنحية هو أمر مشكوك فيه ـ إذا قلنا الأقل. من الممكن أن نقلل من نسبة ظهور مثل هذه الأمراض بتعقيم الأصيل للصفة

المتنحية ـ نعني من يحمل جينين متنحيين ـ والذى، بالتالى، تظهر عليه الصفة. لكن الجينات المتنحية المفردة ستظل تنتقل داخل المجتمع من خلال الأفراد الخليطة، وعددهم أكثر بكثير، وفيهم لاتعبر الصفة بالطبع عن نفسها. والتلقيح العشوائى للأفراد الخليطة سينتج ثانية عددا من النسل المتنحى الأصيل تظهر عليهم الصفة، ويلزم أن يعقموا بدورهم. لكى نخلّص المجتمع من الصفات المتنحية الضارة فإن الأمر يتطلب أن نعقم نسبة معينة من العشيرة فى كل جيل.

فى عام ١٩١٧ قام ريجينالد سى. بانيت ـ أستاذ كرسى بالفور للوراثة بجامعة كيمبريدج ـ بحساب عدد الأجيال اللازمة لخفض ظهور «ضعاف العقول» بنسبة معينة إذا عقمنا كل من يظهر منهم فى كل جيل. فإذا فرضنا أن «ضعف العقل» صفة متنحية تعتمد على زوج واحد من العوامل وأن التلقيح يتم عشوائيا فى المجتمع، فإن خفض النسبة من واحد فى كل مائة إلى واحد فى كل ألف سيتطلب كما وجد بانيت ٢٢ جيلا، أما خفضها إلى واحد فى كل عشرة آلاف فسيتطلب تسعين جيلا، أما خفضها إلى واحد فى كل مليون فإن الأمر يستلزم ٧٠٠ جيل ـ وكل هذه النتائج تقول إن التعقيم لايَعِد بحل سريع لمشكلة القصور الذهنى.

وفى سنة ١٩٢٤ هاجم رونالد فيشر، الرياضى البريطانى والوراثى نصير اليوجينيا، هاجم نهج بانيت فى معالجة المشكلة واعتبره مضللا. فضّل فيشر أن يضع السؤال: «ما هو حجم الانخفاض الذى يحدث فى الجيل الواحد عن تعقيم أو عزل كل ضعاف العقول؟». ابتدأ بنمط بوليجينى للقصور الذهنى آخذا فى الاعتبار أن ضعاف العقول لايتزاوجون عشوائيا، وإنما مع بعضهم البعض (فيما يسمى التزاوج المتجانس)، وتوصل بالحساب إلى أن عزل ضعاف العقول أو تعقيمهم لجيل واحد سيخفض من ولادة أمثالهم بنسبة تبلغ ٣٦٪، وهذا ـ كما أكد ـ «قدر لا يستطيع كل من يهمه مستقبل هذا البلد أن يتجاهله». وبفضل جيننجز لم يتم تجاهل تقديرات فيشر، على أن الطريقة التى لاحظها بها لم تكن كما يحب فيشر. ففى كتاب «الأساس البيولوجى لطبيعة الانسان». أورد جيننجز تقدير فيشر عن انخفاض نسبة القصور الذهنى باستخدام التزاوج المتجانس. ولكنه فى المناقشة رجع إلى تقدير آخر لفيشر مبنى على التزاوج العشوائى ووراثة الجين الواحد، وهو تقدير قاد جيننجز إلى أن يعلن أن ١٠٪ فقط من ضعاف العقول فى كل جيل يولدون عن آباء ضعاف العقول. أما ما استحوذ على انتباه الأمريكان فكانت ملاحظة جيننجز الاستدلالية ـ فلم يكن فيشر قد عرض القضية بصراحة ـ بأن تسعة من كل عشرة أطفال من المعوقين ذهنيا بسبب الوراثة يولدون عن آباء طبيعيين. فى عام ١٩٣٢

أشادت «التايمز» النيويوركية برد جيننجز على فيشر، ولخصت فى مقال للمحرر وجهة النظر الشائعة على جانبى الأطلنطى: «إن الشواهد واضحة على أن الأشخاص الطبيعيين يحملون أيضا جينات معيبة قد تفصح عن نفسها فى نسل متخلف... وحتى لو اكتشفنا من يحمل جينات معيبة مخبوءة باستخدام طرق مربى الماشية على الانسان، فإن العملية ستحتاج نحو ألف عام».

لاحظ ج. ب. س. هالدين أن تقديرات نسبة المعوقين ذهنيا، المولودين لآباء «معوقين»، تتراوح ما بين ٥٪ و ٥٠٪. يَعرف علماء وراثة العشائر الآن أن أثر الانتخاب للصفة يتوقف بطريقة معقدة على ما إذا كانت الصفة سائدة أو متنحية، مرتبطة بالجنس أو غير مرتبطة، بوليجينية أو غير بوليجينية. تختلف التقديرات إذن بالنسبة لما قد يكون عليه معدل الانخفاض فى حالات التخلف الذهنى إذا اتخذنا سياسة تعقيم كل مَنْ يُزَعم أنه ضعيف العقل فى كل جيل ـ وقد رأى هالدين أنها لن تزيد على ٢٠٪. أيا كان الاختلاف حول الأرقام، فإن هالدين وفيشر ومعظم الوراثيين يمكن أن يعضدوا تحذير جيننجز: إننا نخدع المجتمع إذا أثرنا توقعاته بأن تعقيم المعوقين «سيحل مشكلة العيوب الوراثية، وسيغلق أبواب المصحات العقلية، وسيلغى السجون».

ثم إن رأى الثقات بخصوص القصور الذهنى قد تحول على أواسط الثلاثينات نحو الحقائق التى كشفها بنروز: إن مصطلح «ضعاف العقول» يُستخدم فى غير ماحيطة ليشمل قطاعا عريضا من القصور الذهنى، معظمه غير محدد كما يجب، وأن الكثير من الاضطرابات تنشأ عن الحرمان أو المرض، وباستثناء حالات محدودة من القصور، فإنا لانعرف كثيرا يعتد به عن المدى الحقيقى لاعتماد القصور الذهنى على الوراثة. يقول رأى الثقات إن ضعاف العقول لايتكاثرون بمعدل خطر، فالخصب لديهم على الجملة ليس بأعلى منه فى بقية المجتمع، بل إن معدل التكاثر فى الحالات المتأخرة من المرض هو فى الواقع أدنى بكثير.

فى سنة ١٩٣٤ قدمت لجنة خاصة رفيعة المستوى ـ شكلتها الحكومة البريطانية قبل سنتين لتفحُّص قضية التعقيم ـ قدمت تقريرها. كان رئيس اللجنة هو لورنس ج. بروك (رئيس اللجنة المشتركة عن القصور الذهنى) وكانت تضم فيشر وروث داروين وأ. و. لويس، وكانوا جميعا على بينة ببحث بنروز. اهتم تقرير لجنة بروك بالجهل الشديد والتشكك الذى يحيط بالأصول البيولوجية للقصور الذهنى، وأشار بأننا «كلما تمعنا فى السجلات الفردية كلما صعب تحديد

سبب واستبعاد غيره، أو كلما صعب أن نقول بثقة بأن التركيب الوراثى لفرد ما قد هُيئ بحيث يعطى بالضرورة نتيجة بذاتها». شكلت الجمعية الأمريكية للأمراض العصبية عام ١٩٣٦ لجنة يرأسها طبيب من بوسطون هو أبراهام مايرسون، وقدمت هى الأخرى تقريرها عن التعقيم اليوجينى. اعتمدت مجموعة مايرسون على نتائج لجنة بروك، وخلصت إلى نفس الاستنباطات، واكدت على نقطة بذاتها: «ليس هناك فى الوقت الحاضر أية قاعدة علمية متينة للتعقيم بسبب الفجور أو عيوب الشخصية. إن السلوك البشرى والشخصية مواضيع ذات طبيعة غاية فى التعقيد، لها من التشابك مع الظروف الاجتماعية... ما لايسمح بأية استنباطات محددة بخصوص الدور الذى تلعبه الوراثة فى نشأتها». أعلنت اللجنتان بوضوح أنه ليس هناك مايبرر التعقيم الاجبارى، يوجينياً كان أو غير يوجينىّ. أشارت اللجنتان بأن التعقيم قد يجوز فى الاضطرابات التى يثبت أنها وراثية الأصل. وأكدت كلتاهما أن مثل هذا التعقيم لابد أن يكون طوعيا تماما.

نال التقريران اهتماما واسعا فى الدوائر العلمية عبر الاطلنطى. ساعد تقرير مايرسون فى تحصين معارضى اليوجينيا بالولايات المتحدة. أما فى بريطانيا، حيث لم يكن بعد ثمة قانون يسمح بالتعقيم، فقد رحب اليوجينيون بتقرير بروك لأنه يحبذ التعقيم الطوعى فى حالات الاضطرابات الوراثية المؤكدة. فحتى لوتطلب خفضُ نسبة القصور الذهنى العديدَ من الأجيال، فإنه ـ يستحق ـ فى رأى اليوجينيين البريطان ـ أن نبدأ طوعا هذا الطريق الطويل. فى عامى ١٩٣١ و ١٩٣٢ أولت جمعية اليوجينيا عنايتها للقضية فقدمت مشروعى قانونين إلى البرلمان، لإجازة التعقيم الطوعى، لكنَّ أيهما لم يحظ بأكثر من جدل بسيط، ولم يلق حتى أى اهتمام رسمى. على أن الجمعية جددت حملتها لتمرير التشريع بعد ماتبنت موقف تقرير بروك، وعضدها العاملون فى خدمة المعوقين ذهنيا الذين رأوا أن يُسمح بالحياة فى المجتمع العام لكل من يستطيع أن يرعى أموره من المعوقين ذهنيا. كان التعقيم يعتبر مفيدا لمثل هؤلاء ـ ليس فقط لأنه سيمنع انتقال الاضطرابات الوراثية إلى النسل، بل لأن الكثير من المعوقين لا يستطيعون تحمل مسئوليات الأبوة، برغم قدرتهم على رعاية أنفسهم. ولقد حظى التعقيم الطوعى بتأييد جوليان هكسلى ولانسيلوت هوجبين، وبعض فئات حزب العمل والمنظمات النسائية.

قيل إن التشريع بقانونية التعقيم الطوعى هو نوع من العدل الاجتماعى، وأنه ـ مثل تنظيم النسل آنئذ، والاجهاض فيما بعد ـ نوع من حق المرأة فى تنظيم نسلها. لكن المجتمع

البريطانى انقسم بشأن هذه القضية. فلقد شُجب التعقيم الطوعى فى مجلس العموم على أنه مضاد للطبقة العاملة.

أما ج. ب. س. هالدين، برغم اعترافه من ناحية المبدأ بفائدة التعقيم الطوعى، فقد كان أكثر حرصا من هوجبين وهكسلى فى تزكيته. كلما ازداد انحرافه نحو اليسار كلما ازداد استعداده لأن يسلم بأن «الرجل الذى يستطيع أن يرعى الخنازير أو أن يقوم بأى عمل آخر مستمر، هو رجل له قيمته فى المجتمع... وليس لنا أدنى حق فى أن نمنعه من انجاب مثيله». رأى هالدين أن للتعقيم مذاق التشريع الطبقى الاقتصادى. أشار إلى أن المعوق الذهنى «كثيرا ما يمضى بين الأغنياء دون أن يُسَجل، لكن نظرة واحدة إلى الصحف ستقنع كل شخص بأنهم يضمون عددا تتوفر بهم المعايير القانونية للبلاهة». كان هالدين يرى أنه من البدهى أن «أى تشريع لا ينطبق ـ ولا يطبق فعلا (وهذا شىء مختلف تماما) ـ على كل الطبقات الاجتماعية على حد سواء ، سيطبق، فى الأغلب، ظلما على الفقراء».

كانت بديهية هالدين متمشية مع سجل التعقيم بالولايات المتحدة. فقوانين التعقيم بالولايات المختلفة لم تطبق إلا على نزلاء المصحات العقلية العمومية، وهؤلاء فى معظمهم من الأقليات أو من ذوى الدخل المنخفض. كانت الغالبية العظمى ممن عقموا فى فرجينيا من الفقراء، وربما شكّل السود أكثر من النصف منهم. أما فى كاليفورنيا فإن أكثر مَنْ عُقِّم من المجانين الذكور كان من العمال غير المدربين أو ذوى التدريب المتوسط. وكان المواليد من أبناء الأجانب أكثر عرضة للدخول فى المصحات العقلية الحكومية، حيث يعقمون. كانت نسبة هؤلاء الأجانب فى كاليفورنيا تبلغ نحو خمس عدد السكان عام ١٩٣٠، ولكنهم كانوا يمثلون لا أقل من ثلث من أكرهوا على التعقيم.

كان الكاثوليك بلا شك يمثلون نسبة جوهرية من المرضى المؤهلين للتعقيم من نسل الأجانب. حذر توماس جيرارد من «أن الضعف العقلى كثيرا مايكون سببا للفقر، كما أن الفقر كثيرا ما يكون سببا لضعف العقل، وثمة خطر فى أن نخلط هذا بذاك. يحتاج الكاثوليك إذن إلى أن يأخذوا حذرهم وإلا انتُهكت حقوق الفقراء بدعوى الاصلاح اليوجينى». كان بيرس بطلر قاضى المحكمة العليا (الذى كان الصوت الوحيد المعارض فى قضية باك ضد بيل) كاثوليكيا وأبا لثمانية أطفال. وفى الثلاثينات من هذا القرن كانت صحافة الروم الكاثوليك فى انجلترا تعارض التعقيم الطوعى. ولقد قاوم سكرتير حزب العمال أن تشترك القاعدة

الجماهيرية فى الحملة من أجل التشريع، على أساس أن الكاثوليك يشكلون نسبة من هذه الجماهير، ومن ثم يصبح هذا الإجراء مثار الخلاف بينهم.

أثار الجدل حول التعقيم الانتباه إلى حقيقة أن قطع الوعاء الناقل أو ربط قناة فالوب لايقلل من الطاقة أو القدرة الجنسية. ربما تسبب الذيوع الذى حظيت به هذه الحقيقة في تقويض الحماس للتعقيم تماما، بين جماهير الخط الأم حيث ينجدل قمع الجنس مع الحماس اليوجينى. حذرت لجنة بروك من أن التعقيم قد يشجع الاتصال الجنسى غير الشرعى. ولقد رفض علماء اللاهوت الكاثوليك التعقيم لأنه على الأقل يسمح، مثل مانعات الحمل، بالفجور الجنسى دون خوف من الحمل، كما شجبها البابا بيوس الحادى عشر فى نفس المنشور البابوى الذى شجب فيه تنظيم النسل والطلاق والزواج العرفى.

أدلى برنارد شو بدلوه فى الجدل بطريقته التهكمية، فهاجم تعقيم من "لايصلحون" قائلا إن هذا لوكان قد طبق منذ بضعة أجيال لما وُلِد هو شخصيا. ثمة الكثير من الثقات فى الصحة العقلية - ومنهم فرانك تيرنر، مدير كولشيستر - قد تساءلوا عما تعنى كلمة «الطوعية» لدى المتخلف عقليا. صحيح أن المعضدين قد أكدوا أن التعقيم لن يكون شرطا للسماح بالشخص بالحياة داخل المجتمع، ولكن، ألا يمكن أن يصبح هذا بالتحديد شرطا فى الواقع العملى؟ قيل إن مايُعرض اليوم على أنه طوعى، قد يغدو غداً إكراها - إكراها لايُفرض على المتخلفين عقليا وإنما على كل من يعتقد اليوجينيون أنه «لايصلح».

وبالتدريج، ألقى شبح «الإكراه» بظله على صراع التشريع فى بريطانيا. استحث المعارضة من اليسار السياسى كما استحثها من الكاثوليك وغيرهم من المجاميع الدينية، ليشكلوا تحالفا متزايد القوة ضد التعقيم على جانبى الأطلنطى.

حذر الأب جون أ. ريان، الكاثوليكى الأمريكى النشط - مع آخرين - من أنه إذا ماضعفت حرمة الفرد، فستصبح كل حقوق الانسان فى خطر. فالتعقيم الجبرى للمتخلفين عقليا سيقود إلى التعقيم الجبرى «للقاصرين اجتماعيا». ثم يتلوهم «قتل كل من لايمكن علاجه». وصل من ألمانيا أن السلطات فى سكسونيا قد طلبت تعقيم عشرين ألف طفل كل عام، وأن طفلة فى مدينة كيل قد عقمت لأنها غشّت فى المدرسة، وأن الوطنيين المتعصبين فى فرايبورج يتعقبون «المنحرفين أخلاقيا» كما لو كانوا من مضطربى العقل، وأنهم يعقمون أناسا طبيعيين سوى أن أيديهم ذات وَتَرة أو أن أقدامهم حَنْفَاء، وأن بعض المتحمسين يطالبون بتعقيم مرضى السكر

من أجل صحة الجنس الآرى. ولقد قُدّر أن التعقيم قد قتل ١ - ٢٪ ممّن عُقّم من الألمانيات المتمتعات بالصحة. وقيل إن ٢٨٠٠٠ امرأة قد عقمن فى سنة ١٩٣٤ وحدها.

تسربت التقارير خلال الحرب الى الولايات المتحدة بأن النازى ينشرون التعقيم اليوجينى على نطاق أوسع بكثير مما كان يُظَن. عندما كُشِف عن أهوال معكسرات الموت أثناء محاكمات نورمبرج عقب الحرب مباشرة، ذكر بعض الشهود أن أطباء النازى قد أنشأوا مراكز للتعقيم التجريبى. استُخدم الرجال لاختبار طرق الخصى، واستُخدمت النساء لتقييم التعقيم بأشعة إكس وبالحقن والتدمير الكهربى لأعضائهن التناسلية. روت مارى كلود فاليانت ـ كورتييه، النزيلة السابقة فى أوشفيتز أن: «الألمان قالوا إنهم يبحثون عن أفضل طريقة للتعقيم حتى يمكن إعادة تعمير دول أوروبا الغربية بالألمان فى ظرف جيل واحد بعد الحرب».

وقبل نورمبرج بوقت طويل انضمت التقارير الواردة من ألمانيا مع المعارضة العلمية والسياسية والدينية لتقلب المد ضد التعقيم اليوجينى. فشلت الحملة فى بريطانيا لاقرار التعقيم الطوعى فشلا ذريعا. وعلى عام ١٩٣٩ كانت قد ماتت تماما كقضية تشريعية. وفى الولايات المتحدة حرك الكاثوليك بالذات الحملة لدحر قوانين التعقيم الجديدة فى الولايات ولوقف تنفيذ مأقر منها، وتضاءل ماينفّذ من قوانين التعقيم كثيرا فى أوائل الأربعينات، وأصبحت مجرد أثر بحلول عام ١٩٥٠.

* * *

بدأت يوجينيا الخط الأم تنوى مع ذبول الدافع للتعقيم اليوجينى. عقد المؤتمر الدولى الثالث لليوجينيا فى مدينة نيويورك عام ١٩٣٢، لكن عدد الحاضرين لم يتعد المائة. وفى السنين التالية تناقص بثبات عدد الكتب والمقالات المنشورة عن اليوجينيا. ولئن كانت حركة الخط الأم قد انهارت فإن فكرة اليوجينيا لم تَمُتْ على الاطلاق. على العكس، لقد استمرت اليوجينيا تؤرق مجموعة صغيرة من المتحمسين ـ من بينهم عدد من كبار نقاد نظريات الخط الأم وبرامجها ـ كانت تعذبهم لاتزال أحلام التحسين البيولوجى للانسان.

كانت الغالبية العظمى من هؤلاء المناصرين يختلفون عن أسلافهم من معتنقى الخط الأم. كان البعض منهم لاعنصريين محافظين ـ مثل رونالد فيشر، الذى خلف كارل بيرسون على كرسى جالتون وكمدير لمعمل جالتون لليوجينيا القومية، بكلية الجامعة بلندن، وكان البعض الآخر راديكاليين اجتماعيين على تقاليد جورج برنارد شو وهافلوك اليس. أما كبار البيولوجيين منهم فقد كانوا يتراوحون مابين اليسار الوسط واليسار الماركسى ـ من جوليان

هكسلى وهيربرت جيننجز إلى لانسيلوت هوجبين و ج. ب. س. هالدين، وموللر. وسواء أكانوا يمينيين أو يساريين، فقد كان يجمع بينهم إدراك بأن التقدم فى الأنثروبولوجيا والسيكولوجيا وعلم الوراثة، قد حطم تماما كل الركائز «العلمية» لعقيدة الخط الأم، وأن أى يوجينيا جديدة لابد أن تكون متناغمة مع ماهو معروف عن قوانين الوراثة.

ثمة اقتناعات مماثلة ميزت الجيل الجديد من قادة اليوجينيا المُنَظَّمة، ونخص منهم بالذكر فريدريك أوسبورن بالولايات المتحدة، ك. ب. بلاكر في انجلترا. نشأ أوسبورن عن عائلة نيويوركية تجارية مصرفية (كان والده وليام تشيرش أوسبورن محاميا بارزا للشركات بنيويورك، وكان خاله كليفلاند هـ. بودج)، عائلة تحولت فيها فجاة جمع المال إلى تذوق للأدب واهتمام بالخير العام. بعد أن تخرج أوسبورن من برينستون عام ١٩١٠ عمل بالسكة الحديد والصرافة، متحركا مابين وول ستريت ومنزله الواسع في جاريسون على نهر الهدسون، حيث الحوائط تزينها لوحات مونيه وجوجان وبيسارو. ثمة حلقة دراسية عن البيولوجيا حضرها فى برينستون أثارت اهتمامه بتطور الانسان. ولقد بقى معه هذا الاهتمام فى سنى وول ستريت، وكان كثيرا ماينناقش الموضوع مع عمه هنرى فيرفيلد أوسبورن، عالم الحفريات واليوجينى رئيس المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى. وفى أواخر العشرينات، بعد أن أصبح نصيرا لليوجينيا وأبَلَّ من مرض ألم به، ترك وول ستريت ووهب نفسه وقدراً من أمواله، لنوع من حب الانسانية يتركز فى اليوجينيا. اتخذ لنفسه مكتبا عام ١٩٢٩ في متحف عمه، ثم أخذ يقرأ بتوسع خلال السنين الأربع التالية فى الديموغرافيا والسيكولوجيا التفاضلية والوراثة. ولقد حولته قراءاته ضد عقيدة الخط الأم، لاسيما ادعاءاتها العنصرية المعادية للمهاجرين، والتى كانت محورية عند حركة اليوجينيا الأمريكية.

أما الطبيب ك. ب. بروكر فقد تخرج من إيتون وخدم فى الحرب العالمية الأولى فى حرس كولد ستريم، ثم وصل أكسفورد. كان رجلا طويلا نحيلا صارما، تزوج ابنة رائد بالجيش البريطانى وأنجب ثلاثة أطفال، وكان يجرى خمسة أميال كل صباح قبل الافطار وحتى سن الخامسة والستين. كان نشاطه يفوق بكثير نشاط الطبقة الانجليزية التقليدية العليا. أما والده فكان ذا صلة بالأرستقراطية البيروفية فى أواسط القرن التاسع عشر. وكان الجد بلاكر شخصية بارزة فى عصر ديكنز، أطلق علي نفسه اسم "جنتلمان"، تزوج ابنة جنرال فى جيش التوحيد من بلدة سانت لويس، وقسم وقته بين انجلترا وأوروبا، وصادق أناتول فرانس وأوسكار وايلد. فَقَدَ شقيقه الأصغر فى معركة أثناء الحرب، وحصل هو نفسه على وسام البسالة. كان

يؤمن أن الحرب تفسد البشرية، ليس فقط لأنها تقتل شبابا مميزًا من الناحية الجسدية وإنما أيضا لأنها تمنع نوى الاحساس والمفكرين من الأبوة. ويبدو أن بلاكر قد اهتز هو نفسه كثيرا بما خبره فى الخنادق، وبخاصة أن صديقا ضابطا عزيزا لديه نُسِف أمام عينيه في معركة فى السوم عام ١٩١٦. الواضح أن رغبته في المعرفة قد دفعته إلى القراءة المكثفة في السيكولوجيا الفرويدية أثناء وجوده في اكسفورد. أما تعمقه في دراسة فرويد (قال إن دينَه الثقافى لفرويد «هائل») فقد ساعد فى دخوله إلى مهنة الطب النفسى.

لم يخضع بلاكر نفسه للتحليل النفسى قط، كما لم يكن هو أبداً بالمتعصب غير الناقد لفرويد، وكان ذلك بسبب دراسته للبيولوجيا التطورية فى أكسفورد على يدى جوليان هكسلى، وهناك أيضا خبرته في مستشفى مودسلى بلندن، حيث صادف أشكالا مختلفة من الأمراض العقلية. كان يرى أن السيكولوجيا الفرويدية تؤكد أكثر من اللازم على عموميات المرض العقلى، فى الوقت الذى يلزم أن يوجَّه فيه اهتمام أكبر إلى خصوصيات كل مريض على حدة. ومثل الكثير من أعضاء المدرسة البريطانية للطب النفسى، كان بلاكر يفضل أن يضع الاضطراب العقلى فى موضعه البيولوجى المحدد. ولأنه درس علم الحيوان فقد كان تفكيره يتجه بقوة نحو بيولوجيا التطور (كان بلاكر يرى أن الجنس المجرد هو «انتحار للسلالة» - لأنه لايؤدى الى التكاثر - وأن دافع الارتواء الفعلى الذى لايقاوم هو «الوصى البيولوجى على مستقبل سلالتنا»). وبحكم خبرته ومهنته سنجده أكبر من أن يقبل التحامل الساذج ليوجينيا الخط الأم، أو الكثير من آرائها الخاطئة عن الوراثة - قال إن البعض منها لايشبه إلا أن نأخذ تاريخ عائلات ضحايا المناجم (وكلهم بالطبع من الذكور) لنعضد به نظرية تقول «إن القابلية للتعرض للموت بسبب حوادث المناجم هى نتيجة جين مرتبط بالجنس».

فى الثلاثينات، انتُخب بلاكر وأوسبورن فى منصبين رئيسيين كلٌ فى جمعيته القومية لليوجينيا. كان الاثنان - برغم احترامهما للمحافظين المتشددين بين جماهيرهم - يحركان الجمعيتين بثبات بعيدا عن اليمين - لاسيما اليمين المناصر للنازية (بذل بلاكر كثيرا من الجهد حتى لاتتلوث اليوجينيا البريطانية بفرشاة النازية، ليس فقط لأنه كان يرى أن سياسات النازى الموالية للشماليين المعادية للسامية سياسات «سخيفة»، وإنما أيضا لأن اليوجينيا البريطانية - على عكس الأمريكية - كانت قد اجتذبت بعض اليهود). حاول بلاكر وأوسبورن أن يبنيا يوجينيا ترتكز على الحقائق المعروفة عن علم الوراثة. ولبلوغ هذا الهدف حوَّل كل منهما جمعيته من

مجرد دعاية تَعِدُ باصلاح اجتماعى شامل، إلى جهود عاقلة تربوية تهتم بالوراثة والصحة. تحسن الوضع المالى للجمعية البريطانية لليوجينيا عام ١٩٣٠ عندما تلقت منحة قدرها ٦٠ ألف جنيه من هنرى تويتشين، مربى الأغنام الاسترالى الذى قال للجمعية إنه «قد وُلد عن والدين معتلين، وورث ضعفهما» فأضرب عن الزواج وأراد أن يساهم فى تثبيط إكثار من لايصلحون. أما الجمعية الأمريكية اليوجينية فكانت بالمقارنة فقيرة، وكان عليها أن تعتمد على دخل مؤتمرات مختلفة فى مدينة نيويورك. كانت المؤتمرات رغم قلة عددها تقدم مايجذب الناس من محاضرات: ويل ديورانت يحاضر عن اليوجينيا والحضارة، الحاخام سيدنى جولد شتاين يحاضر عن اليوجينيا وتنظيم النسل، آرثر مورجان - رئيس حكومة وادى تينسى - يحاضر عن العقبات الاجتماعية الاقتصادية التى تواجهها اليوجينيا.

وجه بلاكر بعض دخل جمعيته إلى البحوث، أما أوسبورن فكان يدفع من جيبه الخاص مرتبات مجموعة صغيرة من الباحثين. كان كلاهما يحرر ويكتب ضروبا متنوعة من كتب تتعلق باليوجينيا. أعاد كلاهما - بجهد بالغ - تشكيل جمعيته، بتقاعد الأعضاء كبار السن (أو باستقالتهم بسبب المجرى الذى تتخذه الأمور) وذلك لإضعاف أثر اليوجينيين البسطاء وتمكين قبضة المحترفين فى المجالات المرتبطة باليوجينيا. مَدَّ بلاكر يد الصداقة مباشرة إلى اليسار، طالبا أن يشترك فى جمعيته أشخاص مثل هالدين (وكان يمقته) وهوجبين (وكان يحتقره) (يقول بلاكر، ألقى هوجبين محاضرة تدشينه كأستاذ للبيولوجيا الاجتماعية في كلية لندن للاقتصاد، وهو يرتدى "رباط عنق قرنفلى اللون، وشعره قد صُفِّف بطريقة تسمح لثلاث خصلات أن تتدلى على جبهته، تماما مثل بائع في محل سيلفريدج - لا، لم نكن سعداء على الاطلاق!»)، بل وحتى بنروز عدو اليوجينيا الصريح، الذى قبل دعوة لالقاء محاضرة محذرا: «أنت تعرف حجم المخاطرة التى تقدم عليها». لم تكن مثل هذه المخاطر تعنى شيئا عند بلاكر، لأنه - ومثله أوسبورن - كان تواقا إلى الدعم الأكاديمى المحترم. وعلى الأربعينات كان كلاهما قد أعاد بناء كوادره لتضم من الموظفين والأعضاء عددا من كبار المشاهير من الوراثيين والأطباء وعلماء النفس والديمغرافيين.

أطلق الكثير من المثاليين الجدد، فى الثلاثينات، على أنفسهم - فى سعادة - إسم «اليوجينيين»، ولكنهم ظلوا خارج الجمعيات اليوجينية. رفض هالدين - وكان لايحترم بلاكر - أن يتدخل كثيرا فى شئون جمعية اليوجينيا البريطانية، ومثله فعل هوجبين، وكان جوليان هكسلى

هو الدعامة الرئيسية للمجموعة، وأقام أمثاله من البيولوجيين علاقات صداقة مع زملائهم الأمريكان. شكل البلاكرة والهلادنة وأتباع أوسبورن وموللر (بغض النظر عن انضمامهم أو عدم انضمامهم إلى اليوجينيا المنظمة) شكلوا تحالفا فضفاضا - يمكن أن نسميه اليوجينيين المصلحين - رفض بدرجات متفاوتة التحيزات الاجتماعية لأسلافهم من معتنقي الخط الأم، وإن ظلوا مقتنعين بأن تحسين سلالة الانسان يمكن أن يمضي بشكل أفضل باستخدام المعرفة الوراثية - بل ولقد رأى البعض منهم أنه لايمكن أن يمضي بدونها.

أما ماميز يوجينيي الاصلاح عن المصلحين النمطيين في ذلك العهد، فكان اقتناعهم بأن للبيولوجيا أهميتها - فالبيئة تتدخل في تشكيل الانسان، لكن الوراثة تلعب أيضا دورها الجوهري. اتجه يوجينيو الاصلاح إلى التأكيد على أن علم البيولوجيا يكشف - كما قال هكسلي - «التنوعَ الملازم للانسان وتباينه». كان اليوجينيون يرون أن التباين في القدرة الذهنية، المرتكز على البيولوجيا، يفصح عن نفسه في حقيقة أن الناس من نفس الطبقة الاجتماعية يحرزون في اختبارات الذكاء تقديرات تتوزع على مجال عريض. فإذا كان أداء الاختبار يتباين تحت مايُفترض أنها ظروف بيئية ثابتة، فمن الممكن أن يُفسَّر هذا بالتباين في القدرة الكامنة - أو هكذا بدا الأمر للكثير من اليوجينيين. تنبأ هكسلي أننا لو تمكّنا حتى من إزالة التباينات البيئية، فسيبقى اللُّب الوراثي المصدوع فيما أسمته اللجنة المشتركة البيرطانية للقصور الذهني «المجموعة المُشْكِلة اجتماعيا»، وسيكشف عن الطبقات المهنية «كمستودع للبلازما الجرثومية الأسمى للمستوى الأرفع في الذكاء». اتجه يوجينيو الاصلاح إلى الاعتقاد - كما قال جيننجز - «بأننا، في المتوسط، سنجد نسبة الجينات الفقيرة أكبر من مجموعة المنحرفين، ونسبة الجينات الأفضل أعلى في مجموعة القادرين على إعالة أنفسهم».

على أن المصلحين أدركوا أننا لانعرف بدقة إلا القليل جدا عن الدور الذى تلعبه الوراثة فيما يحققه الفرد من انجازات أو اخفاقات. فمن الممكن بسهولة أن يُعلَّل الانحلال أو المرض العقلي أو الجسدي، بين الفئات ذات الدخل المنخفض، إلى قصور الرعاية الصحية أو الإسكان أو التعليم أو الفرص، تماما مثلما يعزى إلى الوراثة. وإلى أن نتمكن من أن نسوى الظروف البيئية الأساسية بين كل الطبقات الاجتماعية الاقتصادية، فليس هناك في رأى يوجينيّي الإصلاح من له الحق في أن يقول إن اختلاف طبقة عن أخرى هو اختلاف وراثي بحت.

بل كان العكس هو الصحيح، إذا نظرنا إلى الكَم المتنامي من الشواهد العلمية. أكد فريدريك أوسبورن أن اختبارات الذكاء لاتكشف عن أى تسلسل هرمي واضح بين المجاميع الوظيفية. لاريب أن التجار والكتبة والعمال الحرفيين يحرزون فى المتوسط تقديرات أعلى في مثل هذه الاختبارات مقارنة بالعمال المدربين ونصف المدربين، وهؤلاء بدورهم يتفوقون على العمال غير المدربين والموسميين. لكن مدي التباين بين الأفراد داخل كل مجموعة حرفية كان كبيرا حتي ليسمح بالكثير من التداخل بين المجاميع، فثمة عدد كبير من الأفراد من أدنى المجاميع لهم من الذكاء مايعادل على الأقل ذكاءَ عدد كبير من أفضل المجاميع. شعر يوجنيو الاصلاح تحت مثل هذه الشواهد بأن عليهم أن يرفضوا ربط القدرة الفطرية بالسلالة أو بالطبقة، وأن يولوا اهتمامهم - بدلا عن ذلك - إلى الخصائص البيولوجية للأفراد.

ثم أنهم ناقشوا مسألة كفاية الغذاء والرعاية الصحية والاسكان والتعليم، وأهميتها بالنسبة لليوجينيا ولخير المجتمع. نادوا بمحو الأحياء الفقيرة، وبناء مساكن معقولة بدلا منها، ومراكز للاستجمام، وبحق العمل والمرتب العادل. لكن يوجينيى الاصلاح اليساريين رأوا أن تدابير الاصلاح الاجتماعي ليست كافية على الاطلاق (قال هكسلى لبلاكر «دعنا لانتظاهر بأننا نحيا العصر الاردوارى القديم الجميل!»). فى محاضرة شهيرة لهكسلى عام ١٩٣٦ أمام جمعية اليوجينيا البريطانية، ذكر صراحة أن أى نظام يرتكز على رأسمالية خاصة وقومية عامة هو نظام بحكم طبيعته مُفْسِد: إنه يعجز عن الاستفادة من المستودع المتاح من الجينات الثمينة، ويؤدى إلى التحلل النهائى. قال هكسلى «إننا لن نستطيع أن نقدم الكثير من ا ليوجينيا العملية حتي نتمكن من تمهيد الفروق البيئية بين كل الطبقات والأنماط - ولابد أن يتم هذا برفع المستوى».

ولقد لطّفت وجهة نظر المصلحين القلق اليوجيني القديم من معدل الولادة التفاضلي - أى ميل الجماعات ذات الدخل المنخفض إلى أن ينجبوا أكثر، مقارنة بالطبقات المتوسطة والعليا. اقترح رايموند بيرل فى كتابه الشهير «التاريخ الطبيعى للعشائر» أن ارتفاع نسبة المواليد بين الجماعات ذات الدخل المنخفض لاينجم بسبب الغفلة الجنسية العابثة عن نتائج الجماع، وإنما ينجم عن حب صادق للأطفال من ناحية، وعن الجهل بمنظّمات النسل من ناحية أخرى. ربما وافق بلاكر وأوسبورن - وكلاهما من المناصرين المخلصين لتوفير وسائل تنظيم النسل للعائلات ذات الدخل المنخفض - ربما وافقا على رأى هالدين بأنه إذا ماتوفر لكل شخص «نفس الدوافع

الاقتصادية لتحديد حجم عائلته كما هو الحال بين الأغنياء»، وكذا نفس امكانية الحصول على وسائل منع الحمل، فسيختفى معدل الولادة التفاضلى.

أما كون معدل الولادة التفاضلى لم يتبوأ مركزا عاليا فى سلم المشاكل الاجتماعية لدى المصلحين فإنما يفصح عن إدراكهم لوجود الخصيصة الاجتماعية بين كل الجماعات، حتى بين من هم قرب القاع فى السلم الاجتماعى الاقتصادى. ثم أن قلة الاهتمام هذه قد نشأت جزئيا بسبب ماتوصل إليه الديموغرافيون خلال فترة الكساد، من أن معدل المواليد بالولايات المتحدة وانجلترا قد انخفض إلى ماتحت المعدل اللازم لاستبدال العشيرة الحالية، وأنه ينخفض أيضا فى جماعات الدخل المنخفض. لخصت إنيدتشارلس الوضع فى كتابها «فجر الأبوة» الذى نشر عام ١٩٣٤. كتبت تقول إن الخصب التفاضلى بين الطبقات كان «ظاهرة مؤقتة واستثنائية» لفترة فريدة من التاريخ، مضت وانقضت، كما تقول الشواهد. إن معدل التكاثر سيستمر - على الأغلب - في الانحدار السريع، وسينكمش عدد سكان انجلترا وويلز خلال مائة عام ليصبح أقل من عدد السكان الحاليين بمدينة لندن الكبرى.

والمجتمع فى رأى يوجينيى الاصلاح يحتاج إلى الاسهام التناسلي مِنْ كل مَنْ هو مؤهل لذلك. بدأ قلق الخط الأم من أجل «السلالة» يتحول ليحل محله الاهتمام «بالعشيرة» وعددها. ولم يكن هذا التحول مجرد تغيير فى المصطلح، إنما هو انعكاس لاعتقاد اليوجينيين المصلحين بأنه من الممكن أن نعثر على جينات ثمينة في معظم الشرائح الاجتماعية، وأن ماعلينا هو أن نشجع أفضل مافى التباين البشرى. كان فردريك أوسبورن متلهفا - مثل ك. ب. بلاكر - لإنقاذ اليوجينيا من العار الذى لطخها به النازى، ومن ثم فقد قدم أفضل وجه ممكن للصيغة الاصلاحية فى كتابه «مقدمة الى اليوجينيا» الذى نشره عام ١٩٤٠:

> *إننا لانستطيع أن نحدد الذُّرى التى قد يسمو إليها أى إنسان، حتى يقابل الظروف البيئية الخاصة التى توافق إمكاناته المتفردة... إذا ماأُنكرت الحرية الشخصية، ثم حاولنا فرض بيئة صارمة لتشكل أناسا من قالب واحد، فستكبت التباينات الفردية، وسيفقد الناس قدرتهم على الاختيار، ليصبحوا لعبة فى أيدى المقادير. إن اليوجينيا فى تأكيدها لفردية الفرد، إنما تضيف إلى*

المثال الأمريكي لاحترام الفرد. إن اليوجينيا تحت الديمقراطية لاتنشد تربية الإنسان في نمط معين، وإنما تنشد رفع مستوى التباينات البشرية، فتقلل من التباينات المتجهة نحو الصحة المعتلة والذكاء المنخفض والشخصية الاجتماعية، وتزيد من التباينات بالنسبة لأعلى مستويات النشاط.